

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر: 73 - 76]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

سَيُكْمَلُ لِلْكَذَّبُونَ
جَدَالُهُمْ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ لَتَتَضَاعَفَ
الْحَسَرَاتُ

لَمَّا تَوَعَّدَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ الْمَكْذِبِينَ بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الرُّسُلَ الْكَرَامَ - عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ؛ تَوَعَّدَتْهُمْ بِجَرِّهِمْ بِالسَّلَاسِلِ فِي الْحَمِيمِ وَقَدْ غُلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ بِالْأَغْلَالِ، وَبِسَجَرِ النَّيرانِ فِي أَجْسَامِهِمْ؛ نَاسَبَ ذَلِكَ ذِكْرُ تَتَمُّةِ الْجِدَالِ الَّذِي بَدَأَ فِي الدُّنْيَا، الْمَمْزُوجِ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ الْمَعْنَوِيِّ، فَتُكْمَلُ الْآيَاتُ حِكَايَةَ عَذَابِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَوَاجِهُونَ بِسُؤَالِ يَزِيدِهِمْ حَسْرَةً وَنَدَامَةً، وَيُذَكَّرُهُمْ بِمَعْبُودَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي عَبْدُوهَا فِي الدُّنْيَا؛ هَلْ وَجَدُوهَا يَوْمَئِذٍ كَمَا كَانُوا يَحْسِبُونَ أَنَّهَا سَتُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا؟ وَجَاءَتْ إِجَابَتُهُمْ بِفِقْدَانِهَا، وَالاعْتِرَافِ بِخَطِيئَتِهِمْ فِي عِبَادَتِهَا؛ فَيُؤْمَرُونَ بِدُخُولِ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ؛ جَزَاءً لِرِضَاهُمْ وَسَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِهَا، وَتَكْبُرُهُمْ هُنَاكَ عَلَى الْحَقِّ وَأَهْلِهِ.

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿ضَلُّوا﴾: ضَلَّ الشَّيْءُ يَضِلُّ ضَلَالًا؛ أَي: ضَاعَ وَهَلَكَ. وَالْإِسْمُ الضَّلُّ بِالضَّمِّ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: هُوَ ضَلُّ بْنُ ضُلٍّ، إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ وَلَا يَعْرِفُ أَبُوهُ. وَالضَّالَّةُ: مَا ضَلَّ مِنَ الْبَهِيمَةِ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالضَّلَالُ وَالضَّلَالَةُ: ضِدُّ الرِّشَادِ. وَقَدْ ضَلَلْتُ أَضِلُّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ

ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي» [سبا: 50]، فهذه لغة نجد، وهي الفصيحة. وأهل العالية يقولون: ضَلَلْتُ بالكسر أَضِلُّ، وَأَضَلُّهُ: أَضَاعَهُ وَأَهْلَكَهُ⁽¹⁾، ومعنى «ضَلُّوا» في جملة «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا»: ضاعوا، وتاهوا، ولا نهتدي لمكانهم، ولا سبيل لنا إليهم.

(2) «تَفْرَحُونَ»: (فرح) أصلٌ يدلُّ عَلَى خِلَافِ الْحُزَنِ، يُقَالُ: فَرِحَ يَفْرَحُ فَرَحًا، فَهُوَ فَرِحٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ». والمِفْرَاحُ: تَقْيِضُ المِحْزَانِ⁽²⁾، ومعنى «تَفْرَحُونَ» في قوله تعالى: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ»: ادخلوا نارَ جهنم بسبب فرحكم بغير أسبابه المشروعة لكم في دار الدنيا.

(3) «تَمْرَحُونَ»: (مرح) أصلٌ يدلُّ عَلَى مَسَرَّةٍ لَا يَكَادُ يَسْتَقِرُّ مَعَهَا طَرَبًا⁽³⁾، فالمرح: شِدَّةُ الفرح والنشاط حتى يُجَاوِزَ قَدْرَهُ، وقيل: المَرَحُ: التَّبَخُّرُ والاختيال. وفي التَّنْزِيلِ: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» [الإسراء: 37]؛ أي: متَبَخِّرًا مَخْتَالًا؛ وقيل: المَرَحُ: الْأَشْرُ والبَطَرُ؛ ومنه قوله تعالى: «بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ». وَقَدْ مَرَحَ مَرَحًا وَمَرَا حًا، وَرَجُلٌ مَرِحٌ مِّنْ قَوْمٍ مَرَحَى وَمَرَا حَى، وَمَرِيحٌ، بِالتَّشْدِيدِ، مِثْلُ سَكِيرٍ، مِّنْ قَوْمٍ مَرِيحِينَ، وَلَا يَكْسَرُ؛ وَمَرَحٌ، بِالْكَسْرِ مَرَحًا: نَشِطٌ، وَالْمَرُوحُ الخمر، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَمْرَحُ فِي الْإِنَاءِ⁽⁴⁾.

ومعنى «تَمْرَحُونَ» في قوله تعالى: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ»: اصطَلُوا النَّارَ بسبب ما كنتم تطربون، وتتبخثرون، وتختالون.

(4) «مَثْوَى»: الثَّوَاءُ: الإِقَامَةُ مع الاستقرار، يُقَالُ: ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً، قَالَ اللَّهُ ﷻ: «وَمَا كُنْتُ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» [القصص: 45]، وَقَالَ: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ» [الزُّمَر: 60]، وَقَالَ: «أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ» [الزُّمَر: 72]، وَقَالَ: «النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ» [الأنعام: 128]، وَالثَّوْيَةُ: مَاوَى الغنم⁽⁵⁾، ومعنى «مَثْوَى» في قوله تعالى: «فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ»: مَكَانُ إِقَامَتِهِمْ وَمُسْتَقَرُّهُمْ الْأَخِيرُ فِي جَهَنَّمَ.

(1) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (ضلل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرح).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرح).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (مرح).

(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ثوى).

✽ المغنى الإجمالي:

سَيَعْتَرِفُ الْكَفَّارُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ
بَأَنَّهُمْ كَانُوا
عَلَى الْبَاطِلِ
فِي الدُّنْيَا، وَلَنْ
يَنْفَعَهُمْ شَيْئًا

تُبَيِّنُ الآيَاتُ الْكَرِيمَةُ حَالَ الْمَكْذِبِينَ بَعْدَ أَنْ يُجَرَّوْا وَيُعَمَّسُوا فِي الْحَمِيمِ، وَتُسَجَّرَ فِي أَجْسَامِهِمُ النَّيْرَانُ، وَيَذُوقُوا مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، بَعْدَ ذَلِكَ يُسْأَلُونَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّبَكُّيتِ: هَلْ وَجَدْتُمْ هُنَا أَصْنَامَكُمْ الَّتِي عِبَدْتُمُوهَا، وَفَضَّلْتُمُوهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى اتِّبَاعِ دِينِهِ الْحَقِّ لِتُنَجِّيَكُمْ مِمَّا حَلَّ بِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ؟ وَتَدْفَعُ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي نَزَلَ بِكُمْ؟⁽¹⁾، فَيَأْتِي الْجَوَابُ مِنْ قَبْلِهِمْ بِالاعْتِرَافِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى شَيْءٍ، بَلْ لَمْ يَعْبُدُوا شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، ثُمَّ تُبَيِّنُ الْآيَاتُ أَنَّ سَبَبَ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ هُوَ فِرْحُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِكُفْرِهِمْ، وَتَبَخُّرُهُمْ وَتَكِبُّرُهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالَّذِينَ، وَبِسَبَبِ "مَا كُنْتُمْ تُظْهِرُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّرُورِ بِالْمَعَاصِي وَكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْآتِبَاعِ وَالصَّحَّةِ"⁽²⁾؛ فَادْخُلُوا جَهَنَّمَ مِنْ أَبْوَابِهَا السَّبْعَةِ، مُقَدَّرًا عَلَيْكُمْ الْخُلُودُ فِيهَا.

✽ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

نوع ﴿ثُمَّ﴾ ودلالاتها:

الإِهَانَةُ النَّفْسِيَّةُ
وَالْإِذْلَالُ الرُّوحِيُّ
أَشَقُّ مِنْ
الْعَذَابِ الْبَدَنِيِّ

﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تَقِيدُ التَّرَاخِيَّ الزَّمَنِيَّ؛ إِذْ يُطْرَحُ عَلَيْهِمْ هَذَا السَّوْأَلُ بَعْدَ مَكَابِدَةِ الْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ وَالْحَمِيمِ وَالنَّارِ؛ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كُلُّ الْحَسْرَةِ النَّفْسِيَّةِ وَالْإِهَانَةِ الرُّوحِيَّةِ إِلَى الْعَذَابِ الْحَسِّيِّ وَالْإِيلَامِ الْبَدَنِيِّ.

وكَذَلِكَ تَفُوقُ ﴿ثُمَّ﴾ بِالتَّرَاخِي الرُّتَبِيِّ؛ إِذِ الْإِهَانَةُ النَّفْسِيَّةُ وَالْإِذْلَالُ الرُّوحِيُّ أَشَقُّ عَلَى أَصْحَابِ الْكَرَامَةِ وَدَعَاةِ الْعِزَّةِ - مِنَ الْكَفَّارِ الْمَكْذِبِينَ - مِنَ الْعَذَابِ الْبَدَنِيِّ، وَ﴿ثُمَّ﴾ تَحْكِي تَصْعِيدَ الْإِيزَاءِ عَلَيْهِمْ رُتَبَةً فَوْقَ رُتَبَةٍ، وَهَكَذَا "لَا يُكْتَفَى بِالْعَذَابِ الْجَسَدِيِّ الَّذِي

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 312 / 12.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 273 / 9.

سَبَقَتْ صورته البشعة، بل يُضْمُّ إليه عذابٌ نفسيٌّ، وهو سؤالهم على سبيل التَّقرِيع والتَّأنيب: أين ما كنتم تعبدون من دون الله؟ هل نفعكم هؤلاء الشُّركاء؟⁽¹⁾.

نكتة التعبير بصيغة الماضي:

سَبَقَتْ الأفعالُ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿يُسْحَبُونَ﴾، ﴿يُسْجَرُونَ﴾ بصيغة المضارعة؛ استحضاراً لتلك الصورة التي ستكون في المستقبل؛ وكأنَّها حاصلةٌ مُشاهدةٌ وقت ترتيل هذه الآيات الكريمة، ثمَّ جاء قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ متحوِّلاً إلى صيغة الماضي، فلم يقل: (ثمَّ يُقال)؛ لأنَّ ما سيُقال لهم ممَّا أخبر به القرآن، فكأنَّه قد قيل؛ وذلك لتقرير وقوعه وتوكيده، ثمَّ لِيَسْمَعَ هؤلاء المشركون ما قيل لِن سبقوهم من أهل الضلال، فهذا خبرٌ من أخبارهم، وأنَّهم إنَّما يُسألون عن معبوداتهم التي عبدوها من دون الله سبحانه، فيلتفتون فلا يجدون لهم ظلاً، فيقولون: لقد ضلُّوا عنَّا؛ أي: تاهوا في هذا المزدحم⁽²⁾.

نكتة بناء فعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول:

جاء بناء فعل ﴿قِيلَ﴾ لغير فاعله؛ ليقع الاهتمام بالقول لا بالقائل، مع العلم بأنَّ "القائلَ لهم ناطقٌ بإذن الله"⁽³⁾، وهو وإنَّ كان غيرَ محدَّدٍ فالغالبُ أنَّ القائلَ هم "الخزنة"⁽⁴⁾، وليقع اللَّفتُ إلى الفعلِ لا إلى القائل، ففي ذلك البناءُ تصفيةٌ للسياق ممَّا قد يشغلُ المكذِّبين عن القول، ويوفِّرُ عنايتهم على القول.

نوع اللَّام ودلائلها:

(اللَّام) في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ في جملة: ﴿ثُمَّ قِيلَ

ما أخبر القرآن
بوقوعه ممَّا
سيأتي له حكم
ما وقع ومضى

لفتُ الأنظار
إلى القول لا
إلى قائله فيقع
الاهتمام بتأمله

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8 / 665.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12 / 1268.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24 / 204.

(4) السمرقندي، بحر العلوم: 3 / 214.

في نيابة الجار
والمجرور عن
الفاعل مبالغة
في وصف سوء
حالهم

التبكيث بالقول
المهين في الآخرة
يخص الكافرين

كثرة أغراض
الاستفهام وفرة
في المعاني وغزارة
في الدلالات

الإيجاز اللفظي،
والمناداة على
المعاني الكثيرة
والعموم
الشمولي

لَهُمْ ﴿لَا مَ التَّبْلِيغِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَبْلُغُ أَسْمَاعَهُمْ؛ لِيَعُوا مَضْمُونَهُ،
فَيُنَادُوا بِالْحَسَرَاتِ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْجِدَالِ. وَاللَّامُ وَمَجْرُورُهَا
فِي مَحَلٍّ رَفَعَ نَائِبٌ فَاعِلٌ لِلْفِعْلِ ﴿قِيلَ﴾، وَفِي ذَلِكَ نَكْتَةٌ لَطِيفَةٌ، حَيْثُ
إِنَّ الْقِصَّةَ كُلَّهَا تَدُورُ عَلَيْهِمْ، وَتَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ وَعَنْ عَذَابِهِمْ، حَتَّى إِنَّ
ضَمِيرَهُمُ الْمَجْرُورَ بِاللَّامِ قَدْ أُقِيمَ مَقَامَ الْفَاعِلِ.

نكتة ذكر القيد ﴿لَهُمْ﴾:

ذكر قيد ﴿لَهُمْ﴾ في جملة ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؛ لبيان
أَنَّ الْقَوْلَ قَدْ وَجَّهَ لَهُمْ بِشَدِيدِ اهْتِمَامٍ وَكَبِيرِ اعْتِنَاءٍ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ اللَّوْمِ
الْكَبِيرِ، وَالتَّوْبِيخِ الشَّدِيدِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ اتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ فِي
الدُّنْيَا؛ أَيْ: قِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، وَفِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ وَالْمَشْهَدِ
لَنْ يَكُونَ سِوَاهُمْ لِيُقَالَ لَهُمْ مَا قَدْ قِيلَ، إِلَّا أَنَّ وَجْهَ الْخُصُوصِيَّةِ كَامِنٌ
فِي إِبْرَازِ غَرَضِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ الْآتِي ذِكْرُهُ فِي الْاسْتِفْهَامِ.

نكتة استعمال أداة الاستفهام ﴿أَيْنَ﴾ في تحقيق الأغراض:

أداة الاستفهام ﴿أَيْنَ﴾ تأتي للاستفهام عن المكان المجهول
للشيء، وفي جملة ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أغراضٌ كثيفةٌ للاستفهام،
منها: التَّائِبُ، وَالتَّبَكِيتُ، وَالتَّقْرِيعُ، وَالتَّنْذِيمُ، وَالتَّحْسِيرُ، وَالْقَهْرُ،
وَالْتَعْجِيزُ؛ إِذْ قَدْ فَاتَتِ الْفُرْصَةَ، وَاسْتَحَالَتِ الْاسْتَعَانَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ
تَعَالَى، كَمَا أَنَّ الْاسْتِفْهَامَ يُحَقِّقُ عَلَى الْمُسْتَفْهَمِ مِنْهُ الْإِنْكَارَ التَّوْبِيخِيَّ؛
الْجَدِيرَ بِإِسْقَاطِ مُزَعِ اللَّحْمِ عَنِ الْوُجُوهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهُوَ أَسْلُوبٌ
مَفْعَمٌ بِأَسْبَابِ التَّحْزِينِ وَالْإِذْلَالِ.

فائدة استعمال ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في جملة ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ موصولةٌ، والمعنى: أين
الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأُلُوهِيَّةِ؟ وَ"مَعْبُودَاتِكُمْ
الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟" (1)، فَاصْطَفَاءُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ ﴿مَا﴾

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8 / 664.

لهذا الموقع حَقَّقَ الإيجازَ، وأدَّى المعنى على أتم وجهٍ، وحَقَّقَ غرضَ
الْعُمومِ المُشتمِلِ على جميعِ المعبوداتِ، لا سيَّما بذكر ﴿كُنْتُمْ﴾.

دلالةُ ذكرِ فعلِ الكونِ الماضي:

آثر النِّظْمُ الكريمُ ذكرَ فعلِ الكونِ الماضي في جملة ﴿مَا كُنْتُمْ
تُشْرِكُونَ﴾، دون أن يقول: (أين ما تشركون)؛ وذلك لبيان أن ديدَنَهُم
في الحياة الدُّنيا هو الإِشْرَافُ بالله تعالى، وأنَّ شرَكهم لم يكن عابراً،
أو عن جهلٍ يسيرٍ، بل هو عن إصرارٍ وعنادٍ ومعرفةٍ للحقِّ، بدليل
ما جاء في السِّياق من ذكرِ المجادلةِ بآياتِ الله تعالى، والتَّكْذِيبِ
بِالكتابِ، وهو ما يُبرهن على أن عذابَهُم عذابٌ يستحقُّونه، وما كان
اللهُ ليظلمَهُم فيما انتهوا إليه من التَّسْجِيرِ في النَّارِ.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ الشُّركِ:

المقصودُ بالشُّركِ في جملة ﴿تُشْرِكُونَ﴾: تعبدون⁽¹⁾، واستعمالُ
مفردةِ الشُّركِ دونِ الكفرِ مع دلالةِ العمومِ والاسِّاعِ في لفظِ الكفرِ
باعتبارِ أنَّ السُّؤالَ كانَ مُتَّجِهاً نحوَ المعبوداتِ الَّتِي اتَّخذَهَا المُشْرِكُونَ
من دونِ الله تعالى، فَحَقَّقَ اللَّفْظُ على هؤلاءِ المُجادِلِينَ المُكذِّبِينَ
جُرْمَهُم، وأُخْزاهم، وعَرَّاهم أمامَ أنفُسِهِم؛ ففي الشُّركِ إعلانٌ
لتسويتهم بين الله تعالى وبين غيره في استحقاقِ العبادةِ، وذلك هو
الظُّلْمُ العَظِيمُ الَّذِي لأجلِهِ أُدْخِلُوا النَّارَ، فكان ذكر لفظِ الشُّركِ هو
الأولى بالمقامِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

من مَزايا التَّعبيرِ بالمضارعِ في الفعلِ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أَنَّهُ يَسْتَحْضِرُ
الماضيَ البعيدَ، ويُقيِّمُهُ ماثلاً لَحْظَةً التَّعْزِيفِ والتَّكْبِيتِ بهذا السُّؤالِ
﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؛ فيحَقِّقُ على هؤلاءِ المُكذِّبِينَ جُرْمَهُم،

الإيماءُ إلى أنَّ
شركَ المُكذِّبِينَ
كانَ أسلوبَ
حياةٍ ومنهجِ
وجودِ

الشُّركُ هو
اللفظُ الأنسبُ
في سياقِ التَّوبيخِ
والتَّقرِيعِ

كلُّ معصيةٍ
تزوُلُ إلَّا الشُّركُ،
فسيبقى عقابُهُ
حاضراً في جهنَّمَ

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 214 / 3.

ويشعرهم أَنَّ شركهم لا يزال وسيظلُّ يطاردُهم في دار العقاب أبدَ الآبدين؛ لأنَّه الخطيئة التي لا تُغفر، بل تُخلدُ صاحبها في الجحيم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116].

نكتة حذف عائِد الموصول:

الشُّرك هو
المعصية الكبرى
بغض النظر
عن الشركاء
المتَّخذين من
دون الله

في قوله تعالى: ﴿أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أثر النظم الحكيم حذف الضمير العائد على الاسم الموصول، والتقدير: أين ما كنتم تشركونهم؛ للاهتمام بقضية الشرك بغض النظر عن الشركاء المعبودين من دون الله، فالشرك هو المعصية الكبرى التي لا يغفرها الله، وبمجرد حصوله يخرج صاحبه عن مظلة التوحيد.

نكتة التقييد بالجار والمجرور ﴿مِنْ دُونٍ﴾ ودلالتهما:

استيعاب كل
معبود باطل؛
ليقع التوبيخ
على جميع
المشركين

جاء قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قيدًا لفعل ﴿تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تشركون من دونه المعبودات الباطلة، وفيه إيحاء إلى أن الحق يقتضي أن يتخذوا الله إلهاً؛ إذ بذلك تقرّر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليفة، وعليه دلّت العقول الراجحة⁽¹⁾، وحرف ﴿مِنْ﴾ دلّ على الابتداء، ولفظ ﴿دُونٍ﴾ دلّ على أن كل معبود هو دون الله تعالى، فالله أكبر وأعظم وأجل وأكرم، فيكون هذا القيد دالاً على الشمول؛ ومستوعباً لكل معبود باطل وبُخوا بسبب اتّخاذهم إلهاً.

علة فصل جملة الجواب عن السؤال:

فُصلت جملة ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ عن جملة ﴿قِيلَ لَهُمْ أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ من دون الله للاستئناف البياني؛ لأنه من باب التّقاؤل الذي تتلاحق الجمل فيه بلا واسطة لفظية، إضافة إلى أن الجملة

الجمل في باب
المقولة تتلاحق
بلا واسطة
لفظية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 163 / 16.

الثَّانِيَةِ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ جوابُ السَّوَالِ الصَّرِيحِ السَّابِقِ: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، ولا يعطف الجواب على سؤاله؛ لما بينَ الجملتين من الارتباط القوي.

براعة استعمال مفردة الضلال:

آثر النظم الكريم استعمال مفردة الضلال في جواب المشركين عند الإخبار عن معبوداتهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بقولهم: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾، مع ما فيه من المعنى اللغوي، وهو الضياع والضيء، وفقدان الوجهة، إلا أنَّ فيه إيحاءً إلى أمرٍ آخر، وهو الاعتراف بالضلال الذي وقعوا هم فيه ضمناً، فإذا أثبتوا الضلال للمعبود فقد أثبتوه لزوماً للعابد.

الضَّالُّ في الدُّنْيَا
يَسْتَلْزِمُ الضَّالَّ
فِي الْآخِرَةِ، كَمَا
أَنَّ الْهُدَى ثَمَرَةُ
الْهُدَى

فالتَّعبِيرُ بمفردة (الضلال) في قولهم: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ مفردة معبرة في مقامها، ومتَّسِقَةٌ مع ما كانوا عليه من ضلالٍ عن الحقِّ في دار الاختيار، فبسبب هذه المعبودات المختلقة أنطَقَهُمْ بمفردة (الضلال) عمقُ أسْفِهِمْ، وتغلُّلُ الندامة في أنفسهم على ما فاتهم من نور الهدى والتَّوفيقِ إلى توحيد الله تعالى، والتَّصديقِ بكتابه العزيز، وبما أرسل به رسله الكرام؛ وهكذا عوقبوا بضلالهم في الدُّنْيَا ضلالَ ألْهَتَهُمُ المَكْذُوبَةَ عنهم في الآخرة، وكذلك الضلال يستلزم الضلال، كما أنَّ الْهُدَى يُثْمِرُ الْهُدَى.

بلغة التضمين وفائدته:

عُدِّي الفعل (ضلَّ) في قول المكذِّبين عن معبوداتهم الباطلة: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ لأنَّه مضمَّن معنى الفعل (غاب)، والمعنى: "غابوا عنا. من: ضلَّتْ دَابَّتُهُ: إذا لم يَعْرِفْ مكانها"⁽¹⁾، وهو ما يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] الدالُّ على أنَّهم مقرونون بآلِهم، "فيجوز أن

غِيَابُ الْأَلْهَةِ
الْمَزْعُومَةِ ضَالَّةٌ
عَنِ الْعَابِدِينَ؛
لِعَدَمِ النَّفْعِ
وَاضْمَحَالِلِ
الْوَهْمِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 664 / 8.

يَضِلُّوا عَنْهُمْ إِذَا وُبِّخُوا وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿فَيُغِيثُكُمْ وَيُشْفَعُوا لَكُمْ؟ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ، وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْفَعُوهُمْ فَكَأَنَّهُمْ ضَالُّونَ عَنْهُمْ^(١)، وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ "لِلنَّارِ طَبَقَاتٍ، وَلَهُمْ فِيهَا مَوَاقِفُ؛ فَيَجُوزُ غَيْبَتُهُمْ عَنْهُمْ فِي بَعْضِهَا وَاقْتِرَانُهُمْ بِهِمْ فِي بَعْضٍ آخَرَ، وَيجوز أن يكون ضلالُهم استعارةً لعدم النفع، فحضورُهم كالعدم، فذَكَرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ فِي مَوْضِعٍ، وَعَلَى مَجَازِهِ فِي آخَرٍ"^(٢).

نوع ﴿بَل﴾ ودلالاتها:

﴿بَل﴾ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ حَرْفَ إِضْرَابٍ، يُفِيدُ الْإِبْطَالَ، فَالْمُشْرِكُونَ مَرْتَبِكُونَ لَا ثَبَاتَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الْظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم: 27]، فَبَعْدَ أَنْ اعْتَرَفُوا بِشُرْكِهِمْ فِي جُمْلَةٍ ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ انْتَكَسُوا إِلَى الْكَذِبِ الَّذِي اعْتَادُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَزْجُرْهُمْ مَا عَايَنُوا مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ، فَقَالُوا: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾، وَ"هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ لَا تَضْطَرُّ أَهْلَهَا إِلَى قَبُولِ الْآيَاتِ وَالتَّصَدِيقِ لَهَا؛ لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ بَعْدَ مَا عَايَنُوا الْعَذَابَ وَظَهَرَ لَهُمْ خَطْوُهُمْ وَكَوْنُهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعَهُمْ مَا عَايَنُوا مِنَ الْكَذِبِ"^(٣).

وَيَحْتَمِلُ حَرْفَ الْإِضْرَابِ أَنْ يَكُونَ لِلانْتِقَالِ، وَالْمَعْنَى: "ضَاعَتْ عِبَادَتُنَا لَهَا، فَكَأَنَّا ﴿لَمْ﴾ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا"^(٤)، فَيَقُولُونَ: "تَبَيَّنَ لَنَا الْيَوْمَ أَنَّا لَمْ نَكُنْ نَعْبُدُ فِي الدُّنْيَا شَيْئًا يُعْتَدُّ بِهِ، وَهُوَ إِضْرَابٌ عَنْ كَوْنِ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ لَيْسَتْ بِمَوْجُودَةٍ عِنْدَهُمْ أَوْ لَيْسَتْ بِنَافِعَةٍ إِلَى أَنَّهَا

(1) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: 4 / 179.

(2) الألوسي، روح المعاني: 12 / 338.

(3) للتأريدي، تأويلات أهل السنة: 9 / 51.

(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 4 / 80.

احتمال حرف
الإضراب
لانتقال أو
الإبطال

ليست شيئاً يُعْتَدُّ به. وفي ذلك اعترافُ بخطئهم وندمٌ على قبيح فعلهم حيث لا ينفعُ ذلك⁽¹⁾.

دلالة التعبير بالفعل المضارع:

تعبيرٌ هؤلاء المشركين بالكون المضارع منفياً، والدعاء المضارع في سياق النفي «لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا» جاء بإزاء الكون الماضي والشرك المستحضر في السؤال «كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ»، وفي ذلك أمانة الانتباه والتركيز والتخلص من مظاهر الغفلة التي كانت تلفهم في الدنيا ومن أسبابها؛ فما عاد للغفلة مكان؛ فقد حلَّ بهم ما لا قبلَ لأحدٍ على احتماله.

لطيفة إينار لفظ «نَدْعُوا» دون (تُشْرِكُ):

آثر المشركون التعبير بالفعل «نَدْعُوا» مع أنَّ السؤال بـ «تُشْرِكُونَ» في جملة «أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ»، وفي ذلك مُجَانِبَةٌ لَلْفِظِ الشُّرْكِ؛ فالشُّرْكُ جريمة الجرائم، وهم يحاولون التهرب منها، فجانبوها، وأدخلوا النفي على دعاء غير الله تعالى قائلين: «لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً»، وهذا منهم محايلة لا جدوى منها، وملاينة غير نافعة.

فائدة تقديم الجار والمجرور على المفعول:

قدَّم الجار والمجرور «مِنْ قَبْلُ» على المفعول «شَيْئاً» في قولهم: «لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً»؛ لتأكيدِ خلوِّ الزَّمنِ السابقِ كُلِّهِ مِنْ دعائهم وعبادتهم شيئاً، سواءً جاء ذلك منهم على وجه الكذب، أو جاء على وجه الاعتراف بخطئهم والإقرارِ بعدمِ أهليَّةِ معبوداتهم الباطلة للعبادة، وأنَّها ليست بشيءٍ، والتَّقديمُ يدلُّ على العناية باستغراقِ النفي للزَّمانِ كُلِّهِ.

دلالة التعبير بلفظ «شَيْئاً» وتنكيره:

يَنْفِي الكفَّار دعوتهم أي (شيء) في قولهم: «لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا

عند وقوع
العذاب
تضمحل الغفلة
وتتلاشى

لا جدوى في
المحايلة ولا نفع
بالمأدبة

العناية
باستغراقِ النفي
للزَّمانِ كُلِّهِ

(1) الألوسي، روح المعاني: 12 / 339.

هول الوقف
يستدعي التبرؤ
من الإشراك
بعمومه

الاتعاض
بالوقوف
على مصائب
المشركين
والاعتبار من
أحوالهم

أداة التشبيه
بمثابة الرابط
الذي يُغني عن
حروف العطف

سنة الله
تعالى ماضية
في الكافرين
باستحقاق
الضلال للبين

مِنْ قَبْلُ شَيْئًا، فَعَبَّرُوا بِالشَّيْئَةِ، وَنَكَّرُوهَا؛ فَجَمَعُوا عَلَيْهَا تَكْثِيرِينَ: تَكْثِيرَ مَعْنَاهَا؛ فَهِيَ (شَيْءٌ) مُبْهَمٌ لَا وَجُودَ لَهُ، وَتَكْثِيرَ مَبْنَاهَا؛ فَهِيَ (شَيْءٌ) مَجْهُولٌ مَنكُورٌ غَيْرُ مُحَدَّدٍ؛ فَفِيهَا مَعْنَى الْعُمُومِ وَالِاسْتِغْرَاقِ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَصَوَّرُ مَعَهُ عِبَادَةٌ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى.

علة فصل جملة الفاصلة عما قبلها:

فُصِلَتْ جُمْلَةٌ «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ» عَنْ جُمْلَةِ «قَالُوا صَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا»؛ لِاخْتِلَافِ مَصْدَرِي الْخَبَرِينَ؛ إِذِ إِنَّ جُمْلَةَ «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ» كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ جَاءَ إِخْبَارًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْجُمْلَةُ السَّابِقَةُ كَانَتْ مِنْ كَلَامِ الْمُشْرِكِينَ، يَتَبَرَّؤُونَ فِيهَا مِنْ عِبَادَةِ شَيْءٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ مَوْضِعُ الْإِعْتِبَارِ وَمَوْقِعُ الْإِعْتِظَافِ.

وظيفة (الكاف) الرابطة:

الأداة الرابطة بين الجملتين هي أداة التشبيه في قوله تعالى: «كَذَلِكَ»؛ إِذْ جَعَلَتْ مَا قَبْلَهَا مَلَخَّصًا فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ (ذَا) مُشَبَّهًا بِهِ، وَجَعَلَتْ مَا بَعْدَهَا مُشَبَّهًا، وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا جَامِعَةٌ؛ فَاسْتَفْنَى التَّرْكِيبَ عَنْ حُرُوفِ الْعُطْفِ، وَالْمَعْنَى: "كَمَا أَضَلَّ اللَّهُ تَعَالَى أَعْمَالَ هَؤُلَاءِ، وَأَبْطَلَ مَا كَانُوا يُؤْمَلُونَهُ؛ كَذَلِكَ يَفْعَلُ بِأَعْمَالِ جَمِيعِ مَنْ يَتَدَيَّنُ بِالْكَفْرِ، فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْهَا، فِإِضْلَالُ الْكَافِرِينَ عَلَى مَعْنَى إِضْلَالِ أَعْمَالِهِمْ؛ أَيْ: إِبْطَالِهَا"⁽¹⁾.

بلاغة التشبيه وغرضه:

يَعُودُ اسْمُ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ» إِلَى مَضمُونِ السَّابِقِ؛ أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ الضَّلَالِ الَّذِي وَقَعَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي الْمَجَادَلَةِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْكِتَابِ، فَاسْتَحَقُّوا الضَّلَالَ وَالْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ يَكُونُ الضَّلَالُ لِعُمُومِ الْكَافِرِينَ؛ أَيْ: "مِثْلَ

(1) الألوسي، روح المعاني: 339 / 12.

ضلالهم ذلك يضلُّ الله الكافرين، والمراد بالكافرين: عموم الكافرين، فليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار⁽¹⁾.

فالتشبيه هو إلحاق حال كل كافر إلى يوم الدين، وما يكون له في الدنيا من الضلال، وفي الآخرة من العذاب؛ بحال هؤلاء المشركين المتقدم ذكرهم، وغرض التشبيه بيان الحال، والكشف عن خطورة اختيار الكفر، ومضرة الجدل في آيات الله تعالى والتكذيب بها في كل أمة وفي كل جيل؛ فسنة الله تعالى في الكافرين لا تتخلف ولا تبدل ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

نكتة الإشارة بالبعيد:

في إثارة الإشارة التي للبعيد في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ مع قرب ذكر المشبه به إحياءً ببعده المشار إليه في الخطورة على من يتورط فيه، وتخويف من المصير إلى مثل مصير هؤلاء المكذبين، فالبعد هو باعتبار معنى الحال الذي تمثل به المشركون من الجدل والتكذيب، فإنه حقيق بالإبعاد، لا باعتبار الذكر في السياق، وعليه فتكون الإشارة للبعيد بغرض إبعاد من هذه حاله، ففيه إحياء بطرد أصحابه وإبعادهم عن ساحة الطهر والرحمات.

فائدة استعمال مفردة الضال:

استعمل النظم الكريم مفردة الضلال في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾؛ لاستحضار معنى الإضلال الذي وقع به المشركون، فحصل لهم ما حصل من العذاب الأليم في الجحيم، وللتحذير من الاستمرار في الكفر، ولبيان أن ما عليه الكافرون بجميع أنواعهم واتجاهاتهم ومبادئهم واعتقاداتهم مصيره إلى ما صار إليه المشركون؛ ففيه دفع اختصاص المشركين بهذا الضلال،

مصير المكذبين
بالحق الطرد
والإبعاد عن
ساحة الطهر
والرحمات

الضال لفظ
جامع لكل من
ينتهي به الحال
إلى مخالفة
الإسلام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 205 / 24.

بل هو ضلالٌ عامٌّ في الجميع؛ فيدخلُ أهلُ الكتاب، والملاحدة، وعمومُ الوثنيين، وكلُّ اعتقادٍ طارئٍ إلى يومِ الدين؛ فاللفظُ الجامعُ لهؤلاءِ جميعاً مع المشركين هو الضلالُ.

نكتة التعبير بصيغة المضارع:

جاء التعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل ﴿يُضِلُّ﴾؛ لبيان أنَّ الضلالَ متجددٌ في الناس، وأنه أمرٌ لا يتوقف، فكلُّما استجدَّ كفرٌ استجدَّ إضلالٌ.

الإضلالُ مستمرٌّ
متجددٌ بتجددِ
الكفرِ واستمراره

لطيفة إسنادِ فعلِ الإضلالِ إلى الاسمِ الجليل:

أسندَ النظمُ الكريمُ فعلَ الإضلالِ إلى الاسمِ الجليلِ في جملة ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ مع أنهم هم الذين ضلُّوا، وهم الذين اختاروا الضلالَ؛ وذلك لبيان أنَّ الأفعالَ كلها لله تعالى، فهو الذي يُقدِّرُ العبادَ على الإتيانِ بها، ففي إسنادِ فعلِ الإضلالِ إلى الاسمِ الجليلِ تنبيهٌ إلى أنَّ جميعَ ما يجري في هذا الوجودِ إنما هو بإذنِ الله تعالى وواقعٌ بمشيئته، حتَّى ما هو خارجٌ عن دائرة مرضاته، فهو الذي سمَحَ بوقوعه، والألم يقع.

جميعُ ما في
الوجودِ إنما هو
بإذنِ الله تعالى
ومشيئته

معنى تعريفِ لفظِ ﴿الْكَافِرِينَ﴾:

لفظُ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ جاء جمعاً معرفاً بـ(أل): لاستغراقِ كلِّ من يتَّصفُ بالكفرِ على اختلافِ مللِهِ ونَحْلِهِ، وتُدْخِلُ كلَّ كافرٍ ضالاً رضي بالكفرِ واختاره على الإسلام.

الكفرُ ضلالٌ بكلِّ
أشكالِهِ وُضُوفِهِ

بلاغة الكناية في التشبيه:

التشبيهُ في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ كنايةٌ عن كونِ إضلالِ الذين يجادلون في آياتِ الله بَلْعَ قُوَّةِ نوعِهِ؛ بحيث يُبْطِرُ به كلُّ ما خفي من أصنافِ الضلالِ، وهو كنايةٌ عن كونِ مجادلةِ هؤلاءِ في آياتِ الله أشدَّ الكفرِ⁽¹⁾.

المجادلةُ في آياتِ
الله تعالى أشدُّ
الكفرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 205 / 24.

فائدة اختيار لفظ الكفر دون الشرك:

آثر النظم الكريم استعمال لفظ (الشرك) في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ دون لفظ (الكفر)، ثم استعمل لفظ (الكفر) في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾؛ ليدخل فيه عموم الكافرين من أهل الشرك والإلحاد وأهل الكتاب وغيرهم؛ أي: فكذلك يضلُّ الله الكافرين بكلِّ أنواعهم ومِلَلِهِمْ، ولو أتى بلفظ الشرك لتوهم أنَّ المراد المشركون على وجه الخصوص، فكان اختيار لفظ (الكفر) لدفع هذا الوهم.

دفع توهم
تخصيص
الشرك بالذم
دون سائر أنواع
الكفر

نكتة حذف متعلق فعل الإضلال:

حذف متعلق فعل ﴿يُضِلُّ﴾ من قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، والتقدير: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ "عن الإيمان، وعن طريق الجنة"⁽¹⁾، "وعن الصراط المستقيم"⁽²⁾، ولطيفة حذف المتعلق إفادة عمومته، وأنَّ إضلالهم كان إضلالاً عاماً عن كلِّ خير ينفعهم، ممَّا يقرَّر أنَّهم مشؤومون. نعم، إنَّه تعالى قد يوفِّقهم إلى خير عاجل لا ينفعهم، بل قد يكون استدراجاً مهلكاً فاتكاً بهم، وهذا من أكبر الخذلان، والعياذ بالله تعالى.

الإضلال عام في
كلِّ خير ديني

توجيه الفصل بين جملة مقول القول وما قبلها:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ مقول قول محذوف، والتقدير: "تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم"⁽³⁾، وهو تكملة للمتقدم ذكره؛ أي: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾، ثم جاء الجواب ﴿قَالُوا﴾، وهنا جاء الردُّ عليهم على تقدير: (قيل لهم): ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾،

التركيب
القرآنيّة
متعاقبة الارتباط
والدلالات

(1) الكرمانى، لباب التفسير، ص: 2630.

(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 318.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 158.

فيكونُ الفصلُ من المحاورِ والمقاولةِ بين الملائكة والمشرِكين، فهم "يقال لهم، ويقولون"⁽¹⁾، فقله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ "تكلمة القيل الذي يقال لهم ﴿إِذْ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾"⁽²⁾.

نكتة حذف فعل القول:

رُبَّ حَذِفِ
وَرَّثَ فَهَمَّا لَا
يَسْتَدْعِيهِ اللَّفْظُ

بناءً على المتقدّم ذكره في النكتة السابقة؛ يُسأل عن نكتة حذف القول المقدّر المحذوف (قيل لهم)؛ فلم يأت على غرار المتقدّم، والجواب: أن جملة ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ جاءت على طريق المباغطة لهم بعد أن صدر عنهم ما صدر، وكان المناسب لهذه المباغطة حذف فعل القول؛ ليتصوّر المتلقّي بواسطة الحذف سرعة المباغطة، وقوّة المفاجأة، فلا يتضح ذلك إلا بالحذف، ورُبَّ حَذِفِ وَرَّثَ فَهَمَّا لَا يَسْتَدْعِيهِ اللَّفْظُ.

تعيين مرجع اسم الإشارة:

المعنى المتقدّم
بجملته مقصود
اسم الإشارة

الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تعودُ إلى مضمون السابق من الضلال المؤدّي إلى العذاب الشديد في النار؛ من سحّبهم في السلاسل والأغلال، وتسجيرهم في النار، وتوبيخهم بالسؤال⁽³⁾، فهو عائدٌ إلى الإضلال والعذاب معاً لتلازم العلاقة بينهما، وناسب ذلك الإشارة بالبعيد.

غرض خطاب المشرِكين:

توبيخ المكذّبين
وقت العذاب
عقاب أليم

يُقال للمشرِكين: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه الخطاب؛ "للمباغطة في التوبيخ؛ لأنّ ذم المرء في وجهه تشهيرٌ له، ولذا قيل: النّصح بين الملائكة تفرّيع"⁽⁴⁾؛ "أي: إنّما نالكم هذا بما

(1) الألويسي، روح المعاني: 338 / 12.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 206 / 24.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 533 / 27، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 333 / 15، والشوكاني،

فتح القدير: 575 / 4.

(4) الألويسي، روح المعاني: 339 / 12.

كنتم تُظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية، وكثرة المال والاتباع والصحة. وقيل: إن فرحهم بها عندهم أنهم قالوا للرسل ﷺ: نحن نعلم أننا لا نبعث ولا نُعذب⁽¹⁾، وللايماء إلى تعاضدهم في نصرة الباطل ومحاربة الحق أيام أن منحوا حرية الاختيار، فاختاروا لأنفسهم الكفر والتكذيب بالدين.

نوعُ الباء ودلائلُها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ للسببية؛ أي: بسبب فرحكم في الدنيا، ومرحكم وتقلُّبكم في الأرض خلاكم الله تعالى إلى الضلال، ولم يوفِّقكم إلى الهدى، لا يظلم منه سبحانه، بل بعنادكم واختياركم؛ فلا تلوُمَنَّ إلا أنفسكم.

عقابُ الكذِّبين
مُسبَّبٌ عن
اختيارهم
وعنادهم

نوعُ (ما) ودلائلُها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تحتلُّ المصدرية وتحتلُّ الموصولية، والمعنى على المصدرية: ذلكم بكونكم فرحين في الأرض بغير الحق وبكونكم مَرِحِينَ، والمعنى على الموصولية: ذلكم بسبب ارتكابكم الشُّرك الذي كنتم به تفرحون في الأرض وبسبب الذي كنتم به تمرحون.

اجتماعُ معنى
المصدرية
والموصولية
يُحقِّقُ الإيجازَ

وَكَلَّا التَّقْدِيرَيْنِ يُوَدِّي المعنى المراد، إلا أن بينهما فرقاً دقيقاً، فعلى المصدرية يكونُ العذابُ مُسَبَّباً عن الفرح والمرح أنفسهما، وعلى الموصولية يكونُ العذابُ مُسَبَّباً عن الشُّرك المؤدِّي إلى فرحهم ومرحهم، وفي النتيجة: الشُّركُ والفرحُ بالشُّركِ شيءٌ واحدٌ يَسْتَحِقُّ به صاحبه العذاب.

وفي إثارة النظم الكريم استعمال (ما) تحقيقاً للدَّلالَتَيْنِ دَفْعاً، ومنحُ التَّركيبِ وجازةً ووثاقةً لا تَتَأْتِيَانِ معاً إلا به.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 333 / 15.

دلالة التصريح بفعل الكون الماضي:

في التعبير بالكون الماضي في جملة ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ حكاية ماضٍ بعيدٍ انقضت لذته وبقيت حسرته، أيام أن كانوا في الدنيا يتلذذون بتكذيب آيات الله تعالى، ومناهضة رُسله الكرام، ومن خلفوهم في الدعوة إلى الله سبحانه من الدعاة؛ ففي التذكير بالكون الماضي هنا تعنيفٌ شديدٌ، وتحسيرٌ أليمٌ يضاف إلى ما يفوح من عناصر التركيب الأخرى من تحسيرٍ وتحزينٍ، وإقامة للحجة عليهم بأن فرحهم في الدنيا الذي صرفهم عن الإيمان والهداية كان ديدنهم، وكان دوام حالهم التي تتجدد في كل وقت وحين، فلم يدخلوا النار إلا بما كان من دوام حالهم وبؤس مقامهم.

فائدة استعمال مفردة الفرح:

التعبير بالفرح في مقام تعذيب المكذبين في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لبيان أن الفرح الملهي عن ذكر الله تعالى هو فرح مذمومٌ، ولم يأت بمفردة اللهو أو الغفلة ونحو ذلك؛ لتحذير المخاطبين بأن الفرح هو أقرب إلى دائرة الذم منه إلى دائرة المدح والقبول، والفرح هو "المسرّة"، ورضا الإنسان على أحواله، فهو انفعالٌ نفساني⁽¹⁾، ففيه إيماءٌ إلى أن العاقل لا ينبغي له أن يكثر من مجالس الفرح، بل يجعلها خفيفةً يسيرةً بقدر الحاجة، والمؤمن إنما يفرح بفضل الله تعالى وبرحمته كما أمرنا الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، وهؤلاء جعلوا الفرح أصلًا ينطلقون منه في حياتهم كلها، ويحيط بهم من كل جانب.

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

تحكي صيغة المضارعة عن هؤلاء المشركين في قوله تعالى:

في تذكير الكافر
بماضيه القبيح
تحسيرٌ بِلذاتٍ
انقضت وتعظيمٌ
لحسرات بقيت

الفرح المحمود
ما كان وسيلة
للسّاعة،
والمذموم ما كان
ديندًا في الحياة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 206 / 24.

﴿تَفَرَّحُونَ﴾، وقوله: ﴿تَمَرَّحُونَ﴾ أنهم كانوا في الدنيا يتمادون في فرحهم ومرحهم، حتّى أصبح منهج حياة مُتَجَدِّدًا، وبيالغون في تبخّثِهم وبطَرِهم بغير الحقّ حتى خرجوا عن منهج الحقّ إلى منهج (غير الحق)، والمنهج القويم يأبى الإكثار من مظاهر الفرح والمرح، وقد تعدّى هؤلاء ذلك حتّى ارتكبوا كثيرًا من أنواع الخطايا في فرحهم ومرحهم، واتَّخذوه منهج حياة مُتَجَدِّدًا، وترَبَّصوا بِرُسلِ الله تعالى الدَّوائرَ، وفَرَّحوا بما يُصِيبُ أنبياءَ الله تعالى وأوليائه من المكارِه⁽¹⁾، فالفرحُ باعتناقِ الباطل، وبنصرته وانتصاره، وبالكيد له ولدُعائِهِ الصَّالحين المصلحين شديدُ الحرمة، فظيغُ الجُرم.

دلالة استعمال حرفِ الظَّرْفِيَّةِ مُقَيَّدًا للفاعل:

في قوله تعالى: ﴿تَفَرَّحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ جاء حرفُ الظَّرْفِيَّةِ ﴿فِي﴾ في مقيدًا لفاعلِ الفرحِ بكونه في الأرض، و﴿الْأَرْضُ﴾ تعني (الدُّنيا)، وهم إنّما كانوا يفرحون ويمرحون (على) الأرض لا فيها، غير أنّ النّظم الكريم دَرَجَ على ذكرِ الظَّرْفِيَّةِ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أغلب مواضع وُرُوده في القرآن الكريم، حيث ورد ذكرُ ذلك في نحو مائة وسبعين موضعًا، ولم يُذكر حرفُ الاستعلاء مع الأرض صراحةً (على الأرض) إلّا في أربعة مواضع، ولها مقاماتها الخاصّة، الجليّة في سياقاتها.

فحرفُ الظَّرْفِيَّةِ يُبَيِّنُ تمكُّنهم في الأرض، حتّى كأنهم مُتَغَلِّغُونَ فيها مُتَمَكِّنُونَ منها؛ ممّا يقتضي منهم شكرَ الله تعالى، ومع ذلك بَطَرُوا الحقَّ، وَجَحَدُوا الفضلَ، وَتَكَبَّرُوا وَتَجَبَّرُوا؛ فاستوجبوا الأغلالَ والسَّلاسلَ والحميمَ والجحيمَ.

يضاف إلى ذلك: أنّ في القيدِ بالظَّرْفِيَّةِ وجهَ إعجازٍ؛ ذلك أنّ مجالَ الأرض أوسعُ من سطحها الذي نعيش عليه؛ إذ إنّ طبقاتِ

الفرح الدائم
المتجدد سمة
أهل الغرور
وعنوان أهل
الترف

تمكين الله
تعالى للكفار في
الأرض يقتضي
منهم شكر
المنعم لا جحود
فضله

(1) الألوسي، روح المعاني: 12 / 339.

الغازات المحيطة بالأرض تجعل هذا الفضاء الذي يحيط بنا من الأرض، فنحن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بهذا الاعتبار، ولسنا عليها.

نوعُ (الباء) ودلالاتها:

(الباء) في القيد بالجار والمجرور ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ للإلصاق، فهم ملتصقون بفرحهم بغير الحق، وملتبسون بمرحهم بغير الحق، وفيها معنى السببية؛ أي: أَنَّ فرحكم المُتجدد المتطاول هذا كان بسبب (غير الحق)؛ ممَّا أوجَب لكم الحميم والنار، وعلى ذلك فالعبد مُؤاخَذٌ بتصرُّفاته جميعها، حتَّى بفرحه ومرحه؛ فيجب أن يضبطهما بضوابطِ ﴿الْحَقِّ﴾، وأن يتحاشى ما سواه.

نكتة تقييد الأفعال:

جاء تقييد فعل الفرح ﴿تَفْرَحُونَ﴾ بقيد ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ لبيان أَنَّ الفرَح المقصود في الآية هو ما كان بغير الحق، وهو البغيض المحظور؛ وهو كما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]، ويقول تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23]. وفائدة القيد هي دفع توهم أن الفرَح محرَّم على المؤمنين.

معنى تعريف لفظ ﴿الْحَقِّ﴾:

تعريف لفظ ﴿الْحَقِّ﴾ يدلُّ على الجنس، وتُقرَّر أنَّ كلَّ صور الاستقامة تنضوي تحت جنس واحد، وأنَّ كلَّ فتائل الهدى تستمدُّ أنوارها، وتستقي بركاتها من مشكاة واحدة.

فائدة إينار التركيب الإضافي على اللفظ المفرد:

آثر النظم الكريم استعمال التركيب الإضافي (غير الحق) دون المعنى المراد وهو الباطل، فيسأل عن نكتة ذكر التركيب الإضافي دون اللفظ المفرد مع وجازته اللَّفْظِيَّة، والجواب: أنَّ ذكر هذا التركيب (غير الحق) يَوْمِي إلى أمرين: أنَّ فرحهم كان بالباطل،

العبد مؤاخَذٌ
بسبب ما
يلتصق به من
مخالفة الحقِّ

دفع توهم حُرمة
الفرح على
المؤمنين

ذكر الحق زيادةً
في التحسير على
تركه والتَّنبويه
بمكانته العليَّة

وَأَنَّهُمْ تَرَكَوا الْحَقَّ الَّذِي كَانَ نَجَاةً لَهُمْ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَهَمُّ، وَفِي ذِكْرِهِ تَنْوِيهٌ بِعَظَمَتِهِ، وَتَنْبِيهٌُ إِلَى وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ؛ فَفَائِدَةُ ذِكْرِهِ زِيَادَةُ التَّحْسِيرِ، وَالتَّنْوِيهِ بِمَكَانَتِهِ الْعَلِيَّةِ.

دلالة واو العطف:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ واو العطف، عطفت ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ على المتعلق ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فكلاهما متعلق بمقدّر واحد، وتقدير الكلام: قيل لكم: ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تمرحون في الأرض بغير الحق.

للمعطوف حكم
المعطوف عليه
في المتعلقات
والقيود

نوعُ (الباء) ونكتة تكرارها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ باءُ السَّبَبِيَّةِ؛ أي: إِنَّ مَا صِرْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَغَلَّكُمْ بِتِلْكَ الْأَغْلَالِ وَسَلَّسَلْتَكُمْ بِتِلْكَ السَّلَاسِلِ، وَسَحَبَكُمْ فِيهَا، وَسَجَرَكُمْ فِي النَّارِ، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ (ما كنتم تمرحون)، لا بظلم وقع عليكم. وفي تكرار (الباء) بعد سبق ذكرها في جملة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ مزيدٌ تبكيثٍ وتوبيخٍ، وتنبيهٍ إلى أَنَّ مَرَحَهُمْ هُوَ الْآخِرُ جَدِيرٌ بِعَذَابٍ نَفْسِيٍّ مُسْتَقِلٍّ، فَضْلًا عَنِ الْعَذَابِ الْبَدَنِيِّ اللَّائِقِ بِجُرْمِهِمْ.

المرح عنوان آخر
من عناوين
الانشغال عن
التصديق بيوم
الدين

نوعُ (ما) ودلالاتها:

ما قيل في (ما) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ هو نفسه ما يُقال في قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، فهو محمولٌ على المصدريةِ والموصوليةِ بمعناها العامَّةِ والدَّقِيقِ المتقدمِ بغرضِ الإيجازِ.

بلادة استعمال مفردة المرح:

جاء استعمال مفردة المرح في جملة ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ ليمثِّلَ مظاهر الخفة والطرب الناتجة عن الفرح، فالفرح أمرٌ قلبيٌّ روحيٌّ

المرح نتيجة
الفرح والبطر،
وهو أشدُّ الفرح

مستور، والمرح مظهرٌ بدنيٌّ منظورٌ، ومن المرح "البطر والخيلاء"⁽¹⁾، و"ما يظهر على الفرح من الحركات في مشيه، ونظره، ومعاملته مع الناس، وكلامه، وتكبره؛ فهو هيئةٌ ظاهريةٌ"⁽²⁾، ومنه الـ"فرح بُعدوان، كالبطر والأشر"⁽³⁾، ومنه "التكبر؛ وهو كقوله: ﴿وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37]؛ أي: تكبراً"⁽⁴⁾.

بلاغة فنّ الجناس:

الجمع بين
الحالة النفسية
والبدنية بجناسٍ
لطيف

بين الفعلين ﴿تَفْرَحُونَ﴾، و﴿تَمْرَحُونَ﴾ جناسٌ مُحَرَّفٌ؛ إذ الفرق بينهما محصور في اختلافهما في تغيير حرفٍ واحد، فجاء بدلاً من (الفاء) في الأول (الميم) في الثاني، فالأول يدلُّ على انتعاش الروح وطرب النفس، والثاني يدلُّ على خفة البدن وحركات الجوارح، فالجناسُ حَقَّقَ عنصرَ المخادعة، وجاء على ما طلبه المعنى واستدعاه، وساقه نحوه بلا أدنى كلفة.

بلاغة الإيجاز بالاكتهاف:

الاكتفاء القرآني
يُحَقِّقُ إيجازَ
اللفظ مع تمام
المعنى

اكتفى النظم الكريم بذكر القيدين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ و﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ في جملة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عن إعادتهما في جملة ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ إذ إنَّ ذِكْرَهُمَا قَبْلًا يُحَقِّقُ الْوَجَازَةَ مع تمام البر بالمعنى والوفاء بتحقيق الغرض.

علةٌ فصلِ جملة ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ عما قبلها:

الدخول في النار
نتيجة الفرح
بالباطل في
الدنيا

جملة ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ "يجوزُ أن تكون استئنافاً بيانياً؛ لأنَّهم لما سمعوا التَّبريع والتَّوبيخ، وأيقنوا بانتفاء الشَّفيع؛ ترقَّبوا ماذا سيؤمر به في حقِّهم، فقبل لهم: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾، ويجوز أن تكون بدلَ اشتمالٍ من جملة ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ فإنَّ

(1) الواحدى، التفسير الوسيط: 21/4.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 206/24.

(3) حجازي، التفسير الواضح: 317/3.

(4) اللاتريدي، تأويلات أهل السنة: 52/9.

مدلول اسم الإشارة العذاب المشاهد لهم، وهو يشتمل على إدخالهم أبواب جهنم والخلود فيها⁽¹⁾.

فهي على الوجهين مفصولة عن السابق؛ وبين الجملتين على تقدير الاستئناف البياني شبه كمال الاتصال، وعلى تقدير البدلية كمال الاتصال.

غرض الأمر ودلالته:

الأمر بالدخول في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ محمول على الإهانة والتحقير والتبكي، وهو تحصيل حاصل، وليس أحد يدخل النار باختياره، فهو إجباري يكون بجرهم بالسلاسل حتى يدخلوها، وينزلوا منازلهم التي أعدت لهم؛ ففيه من الإياس من النجاة من العذاب ما يسود مصيرهم الأليم؛ فإنه أمر من لا يرد له أمر، من إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. وفيه تقييع وتوبيخ هما من جملة عذابهم، وإلا لزوجوا فيها مباشرة من دون توجيه الأمر إليهم، فلكل جماعة بابها الذي تدخل منه إلى منزلها المعد لها في جهنم، كما يقول الله سبحانه: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: 44]⁽²⁾.

تبكيث للكذبين
بإعادتهم
بمصير حالهم

لطيفة إسناد الدخول إلى الكفار:

لا يدخل أحد أبواب جهنم من تلقاء نفسه إلا مضطراً مجبوراً على دخولها، والأمر صادر ممن إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، فإسناد فعل الدخول إليهم في جملة ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ يعكس ما يتجرعونه من الخوف، وما يرون هنالك من أسباب الاضطراب والضغط؛ بحيث يدخلون بأنفسهم أبواب جهنم. يضاف إلى ذلك أن إسناد دخول هذه الأبواب إلى ضميرهم

الإيماء إلى
فقدان الاختيار
بدخول أبواب
النار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 206 / 24.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1270 / 12.

يُذَكِّرُ باختيارهم أسباب الدُّخول؛ حتَّى كأنَّ دخولهم إيَّاهَا بِمَحْضِ إِرَادَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ اخْتِيَارًا، فَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَا سَيَكُونُ مِنْ وُلُوجِ النَّارِ، لَا بِاعْتِبَارِ إِرَادَةِ الْفَعْلِ.

دلالة جمع ﴿أَبْوَابٌ﴾:

أَبْوَابُ النَّارِ
مَعْدُودَةٌ،
وَأَجْزَاءُ دَاخِلِيهَا
مَقْسُومَةٌ

وَرَدَتْ كَلِمَةُ ﴿أَبْوَابٌ﴾ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ إِشَارَةً إِلَى عِدْدِهَا الْمَحْدَدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: 44]، إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالْعِدَدِ ﴿سَبْعَةٌ﴾ [الحجر: 44] الْكِنَايَةُ عَنْ كَثَرَتِهَا جَرِيًّا عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اسْتِعْمَالِ هَذَا الْعِدَدِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ سِرَّهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى سَعَتِهَا سَعَةً تُكْفِي لِأَكْثَرِ النَّاسِ، وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ لَنَاكِبُونَ.

بلاغة الكناية في استعمال لفظ الدُّخول:

دُخُولُ أَبْوَابِ
جَهَنَّمَ مَقْدَمَةٌ
مُوحِيَةٌ بِإِعْدَادِ
النَّارِ وَتَهْيِئَتِهَا

الْأَمْرُ بِدُخُولِ أَبْوَابِ النَّارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ الْكُونِ فِي جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّ الْأَبْوَابَ إِنَّمَا جُعِلَتْ لِيَسْلُكَ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ وَنَحْوِهِ⁽¹⁾، فَدُخُولُ أَبْوَابِ الشَّيْءِ دَلِيلُ دُخُولِهِ وَتَجَاوُزِهِ إِلَى دَاخِلِهِ، فَالْمَقْصُودُ بِأَبْوَابِ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ نَفْسُهَا؛ بِقَرِينَةِ الْخُلُودِ فِيهَا. وَفِي التَّعْبِيرِ بِدُخُولِهِمْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ دُونَ التَّصْرِيحِ بِدُخُولِهَا نَفْسِهَا إِشْعَارًا بِفُظَاعَةِ خَطَرِهَا؛ إِذْ كَانَ دُخُولُ أَبْوَابِهَا عَقُوبَةً تُكَافِي شَرَكَهُمْ، فَكَيْفَ بِدُخُولِهَا نَفْسِهَا؟ فَهُوَ يَطْوِي مِنَ الْعِقَابِ مَا لَا يُتَصَوَّرُ.

بلاغة اللجاز في استعمال لفظ الأبواب:

قِيَمُ الْهَدَايَةِ
مُبْشُورَةٌ فِي
الْتَّرْهيبِ كَمَا هِيَ
فِي التَّرْغِيبِ

الْبَابُ نَفْسُهُ لَا يُدْخَلُ، وَإِنَّمَا يُدْخَلُ مَا وُضِعَ لَهُ الْبَابُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ يُرَادُ بِهِ دُخُولُ جَهَنَّمَ، وَذَكَرَ الْبَابَ مَجَازًا مَرْسَلًا عِلَاقَتَهُ الْجَزَائِيَّةَ، حَيْثُ أُطْلِقَ الْجِزَاءُ وَأَرَادَ الْكُلَّ، أَوْ الْحَالِّيَّةَ، حَيْثُ أُطْلِقَ الْحَالُّ فِي مَدَاخِلِ جَهَنَّمَ - وَهُوَ الْبَابُ - وَأَرَادَ مَحَلَّ الدُّخُولِ، وَنَكْتَهُ ذَلِكَ الْإِعْلَامُ بِوُجُودِ أَبْوَابٍ لَجَهَنَّمَ، يَكُونُ الدُّخُولُ مِنْهَا أَمْرًا، وَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَفِيهِ مَزِيدٌ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 206 / 24.

عذابٍ نفسيٍّ؛ إذ عندَ علمِ استحالةِ النِّجاةِ يقَعُ العبدُ في اليأسِ والعجزِ؛ فيُقبَلُ على تَخْلِيصِ نَفْسِهِ - إِنْ كَانَ عَاقِلًا - مِنْ مَدَاخِلِ الْعَذَابِ وَأَسْبَابِهِ.

نكتة التعبير باسم الفاعل:

جاءَ التَّعبيرُ باسمِ الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ﴾، وهي حالٌ مقدَّرةٌ من الفاعلِ، وهو ضَمِيرُ الجماعةِ في جملة ﴿أَدْخُلُوا﴾، وهم مُخَلَّدُونَ فِيهَا رَاغِمِينَ، لَا خَالِدُونَ فِيهَا رَاغِبِينَ؛ لَكُنْهُمْ لَمَّا اسْتَوْجَبُوهَا بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي اخْتَارُوهَا أَحْرَارًا مُخْتَارِينَ كَانُوا كَأَنَّهُمْ يَخْلُدُونَ فِيهَا مُخْتَارِينَ الْخُلُودَ فِيهَا بِرَغْبَتِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ تَنْبِيهُ لَهُمْ وَتَحْذِيرٌ قَدْ يُرَدُّهُمْ عَنْ كُفْرِهِمْ.

دخول الكافرين
أبواب جهنم
مقدَّر بِخُلُودِهِمْ
فيها

نكتة تقيد ﴿خَالِدِينَ﴾ بالجار والمجرور:

قَيَّدَ خُلُودَ الْمُشْرِكِينَ فِي جَهَنَّمَ بِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ ﴿فِيهَا﴾؛ لِيَقْتَضِيَ تَغْلُغْلُغَهُمْ فِي أَعْمَاقِ أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ، وَمَكَابِدَتَهُمْ صُنُوفَ الْعَذَابِ فِي أَحْشَائِهَا، وَقَدْ صَارَتْ ظَرْفًا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ يَتَلَطَّوْنَ ﴿فِيهَا﴾، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ كُلِّهِ.

جهنم واسعة
عميقة سحيقة
لا قرار لثقلها

كَمَا أَنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ ﴿فِيهَا﴾ يُوحِي بِأَنَّهَا وَاسِعَةٌ عَمِيقَةٌ سَحِيقَةٌ؛ بَحِثْ يَهْوِي ﴿فِيهَا﴾ الْكَفَّارُ هَوًيًا سَحِيقًا؛ اتَّسَاقًا مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۚ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۚ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۚ﴾ [الحاقة: 30 - 32].

نوع (الفاء) ودلالاتها:

(الفاء) في جملة ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تَفْرِيعِيَّةٌ عَلَى ﴿خَالِدِينَ﴾، حَيْثُ فَرَّعَتْ ذِمَّ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ عَلَى خُلُودِهِمْ فِي جَهَنَّمَ بَعْدَ وُلُوجِهِمْ أَبْوَابَهَا وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِي أَعْمَاقِهَا.

عاقبة التكبر
عن طاعة الله
ذميمة

دلالة التعبير بلفظ (بئس) بصيغة التذكير:

(بئس) فعلٌ يدلُّ على الذَّمِّ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ هُنَا مَحْذُوفٌ

العبرة في باب
المدح والذم
إسناد فعليهما
إلى الذكور لا
المقدر المخصوص

دعوة للتوبة،
وتلويح بفتح
باب الرحمة

مخالفة مقتضى
الظاهر لموافقة
مقتضى الحال
من دقيق
التعبير وجزالة
اللفظ

وهو (جهنم)؛ وهي مؤنثٌ بدليل عَوْدِ الضمير المؤنث عليها في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ فكان حق الفعل (بئس) - في الظاهر - أن يتصل بـتاء التانيث، لكن "لم يتصل فعل (بئس) بتاء التانيث؛ لأنَّ فاعله في الظاهر هو ﴿مَثْوًى﴾؛ لأنَّ العبرة بإسناد فعل الذم والمدح إلى الاسم المذكور بعدهما، وأما اسم المخصوص فهو بمنزلة البيان بعد الإجمال، فهو مبتدأ خبره محذوف، أو خبرٌ مبتدأ محذوف؛ ولذلك عُدَّ بابُ نعم وبئس من طُرُق الإطناب⁽¹⁾.

نكتة حذف المخصوص بالذم:

حُذِفَ المخصوص بالذم في جملة ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ عليه ذِكْرُ جهنم في قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: فبئس مَثْوًى المتكبرين جهنم⁽²⁾. ويُلمَح في حذف المخصوص بالذم ﴿جَهَنَّمَ﴾ وطِيَّه من الذكر دعوة إلى التوبة، وتلويح بفتح باب الرحمة لمن أدرك فرصة وجوده هنا في الحياة الدنيا فرجع إلى الحق؛ فما أرحَمَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ! ﷻ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿مَثْوًى﴾ دون (مدخل):

المَثْوَى: هو المستقرُّ ومحلُّ الثَّوَاءِ، والثَّوَاءُ: الإقامة الدائمة، وأوثر لفظُ مَثْوًى دون (مدخل) المناسب لـ ﴿أَدْخُلُوا﴾؛ لأنَّ المَثْوَى أدلُّ على الخلود؛ فهو أولى بِمَسَاءَتِهِمْ⁽³⁾، وأشدُّ تخويفاً لهم ولغيرهم في باب التهديد والوعيد، ودلَّ لفظ الخلود على الثَّوَاءِ الدائم؛ فجاء التركيب: ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، فكان العدولُ عن (فبئس مدخل المتكبرين) لأنَّ نَفْسَ الدُّخُولِ لا يَدُومُ ولا يَسْتَلِزِمُ الخلودَ، فلم يُبَالِغْ في ذمِّه، بخلاف الثَّوَاءِ الدائم⁽⁴⁾ المناسب لِلْفِظِ الخلود؛ فلذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 207/24.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 207/24.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 207/24.

(4) أبو حيان، البحر المحیط في التفسير: 273/9.

أَوْثَرُ فِي الذَّمِّ ذِكْرُ الثَّوَاءِ عَلَى الدَّخُولِ. عَلَى أَنَّ الْخُلُودَ لَا يَكُونُ مُقَارِنًا لِلدَّخُولِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لَاحِقًا بَعْدَ الدَّخُولِ؛ لِذَلِكَ كَانَ الْمَعْنَى: "خَالِدِينَ فِيهَا مُقَدَّرًا خُلُودُكُمْ فِيهَا"⁽¹⁾.

كَمَا أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْعُدُولِ انْتِقَالَ الْكَلَامِ عَنْ ذِكْرِ الْأَبْوَابِ إِلَى ذِكْرِ جَهَنَّمَ نَفْسِهَا، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَقْيِيدِ ﴿خَالِدِينَ﴾ بِالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿فِيهَا﴾، وَمِنْ الْمَعْلُومِ بَدَاهَةٌ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يُخَلَّدُونَ فِي أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، بَلْ يُخَلَّدُونَ فِي أَعْمَاقِهَا وَسَحِيقِ أَوْدِيَّتِهَا، الَّتِي جَاءَ الْخَبَرُ فِيهَا: «إِنَّ الْحَجَرَ لَيَزِنُ سَبْعَ خَلِفَاتٍ⁽²⁾ يُرْمَى بِهِ فِي جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي سَبْعِينَ خَرِيفًا، مَا يَبْلُغُ قَعَرُهَا»⁽³⁾.

بِلَاغَةُ اسْتِعْمَالِ مَفْرَدَةِ التَّكْبُرِ:

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الْكَرِيمَ مَفْرَدَةَ التَّكْبُرِ فِي جُمْلَةِ الذَّمِّ: ﴿فَيَسَّسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ التَّكْبُرَ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْجَرَائِمِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الذَّمَّ، وَأَنَّهُ دَاعِيَةُ الْجِدَالِ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّكْذِيبِ بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الرُّسُلَ ﷺ، وَأَنَّهُ بَوَابَةُ الْكُفْرِ؛ فَيُؤَدِّي بِأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَثْوَى الذَّمِيمِ، فَانْتَقَى وَصَفَ التَّكْبُرِ دُونَ الشَّرْكِ أَوْ الْكُفْرِ؛ لِلنَّصِّ عَلَى الْعِلَّةِ الدَّاعِيَةِ لَهُمَا، وَأَنَّ الْكِبَرَ أَصْلُ كُلِّ ذَمِيمٍ، وَلَا عِلَاجَ لَهُ إِلَّا النَّارُ.

مَعْنَى تَعْرِيفِ لَفْظِ «الْمُتَكَبِّرِينَ»:

جُمِعَ لَفْظُ «الْمُتَكَبِّرِينَ» وَعُرِّفَ بِ(أَل) لِبَيَانِ اسْتِغْرَاقِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ، وَهِيَ تَقْضِي بِأَنَّ جَمِيعَ الْمُتَكَبِّرِينَ دَاخِلُونَ فِي الْوَعِيدِ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ قَالَ اللَّهُ ﷻ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ

الْكِبَرُ عِلَّةُ الْكُفْرِ
وَدَاعِيَةُ الشَّرْكِ
وَأَصْلُ الذَّاءِ

كُلُّ مُتَكَبِّرٍ لَا
يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ
فَمَوْعِدُهُ جَهَنَّمَ

(1) أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 285 / 7.

(2) "عَنِ الْأَضْمَعِيِّ: نَاقَةٌ عَاقِدَةٌ تَعْقُدُ بِذَنْبِهَا عِنْدَ اللَّقَاحِ، فَإِذَا ثَبَتَ اللَّقَاحُ وَهُوَ حَمْلُهَا فَهِيَ خَلِيفَةٌ، جَمْعُهَا خَلِفَاتٌ"، يَنْظُرُ: ابْنُ سَيِّدِهِ، لِلْخَصَصِ، كِتَابُ الْإِبِلِ - خَفَلُ الْإِبِلِ وَنَتَاجُهَا.

(3) الطَّبْرَانِيُّ، الْمَعْجَمُ الْكَبِيرُ، بَابُ الْبَاءِ، يُرِيدُهُ بُنُو الْحَضَيْبِ الْأَسْلَمِيُّ يُكْنَى أَبَا عُبَيْدٍ اللَّهِ: 21 / 2، بِرَقْم: (1158).

نَارَ عَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»⁽¹⁾، و"المراد بـ ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هنا هم المخاطبون ابتداءً؛ لأنَّهم جادلوا في آيات الله تعالى عن كِبَرٍ في صدورهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: 56]، ولأنَّ تكبرهم من فرحهم"⁽²⁾، وهؤلاء المجادلون المكذبون تكبروا على الرسول ﷺ، بل حمَلَهُم الكِبَرُ والحسد على منازلته ما استحقوا به الذمَّ والوعيد.

نكتة العدول عن ضميرهم إلى ذكرهم بوصف التَّكَبُّر:

آثر النظم الكريم ذكرَ المشركين بإظهار أحد أوصافهم - وهو التَّكَبُّر - دون الإضمار، حيث إنَّ مقتضى الظَّاهر أن يُقال: (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس المثوى مثواكم)، لكنَّ النظم الكريم عدل إلى الاسم الظَّاهر ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ وذلك للإيماءِ إلى أنَّ من "أسباب وقوعهم في النَّار تكبرهم على الرِّسل، وليكون لكلِّ موصوف بالكبر حظٌّ من استحقاق العقاب إذا لم يتُبَّ ولم تغلب حسناته على سيئاته إنَّ كان من أهل الإيمان"⁽³⁾، وللانصراف عن مخاطبتهم، وإشعارهم بعدم أهليَّتهم للخطاب؛ فجاء بالوصف المتضمَّن الغيبة، وللنَّصِّ على موجبٍ خطيرٍ من موجبات معاقبتهم بهذا المصير الدَّيم، وهو التَّكَبُّر الَّذي حال بينهم وبين الإيمان، إلى ما في التَّكَبُّر من انتحال صفةٍ هي لله تعالى خالصة، لا يجوز لأحدٍ أن يَنازعه فيها؛ لقول الله ﷻ في الحديث القدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَ عَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»⁽⁴⁾، وللاشارة إلى مَنْ يتَّصف بهذه الصِّفة من عصاة المؤمنين؛ ليحذروا العناد عليها، ويتَّجهوا إلى التَّوبة الصادقة.

لكل متكبِّر
نصيب من النَّار
ولو كان من أهل
الإيمان

(1) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكِبَر: 59 / 4، برقم: (4090).

(2) ابن عاشور، التَّحْريْر والتَّنْوِير: 207 / 24.

(3) ابن عاشور، التَّحْريْر والتَّنْوِير: 207 / 24.

(4) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكِبَر: 59 / 4، برقم: (4090).

دلالة التعبير باسم الفاعل:

في صياغة **﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾** في قوله تعالى: **﴿فَبَشِّرْ مَثْوًى﴾** **﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾** اسم فاعل إشارة إلى تغلُّلِ الكبر في نفوس كفَّار قريش، وأنَّ الكبر تمكَّن منهم، وصار صفة لازمة قائمة فيهم، وفي ذلك تلويح بمصيرهم الدَّميم؛ ممَّا قد يزجرهم عن الكبر، وعن التَّجَرُّؤِ على الحقِّ. وتلك حقيقة ثابتة؛ يدلُّ عليها اختصاصُ أغلبِ مواضع وصف العذاب بالمُهين في الذِّكر الحكيم بكفَّار قريش، وتلك ظاهرة قرآنيَّة تتَّسقُ مع ما كان لهم من أنفة وكبرياء كان الملائمُ لعقوبتهما توعُّدهم بالعذاب المُهين⁽¹⁾.

لطيفة حذف متعلق **﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾**:

حُذِفَ متعلق لفظِ التَّكَبُّرِ في قوله تعالى: **﴿فَبَشِّرْ مَثْوًى﴾** **﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾**؛ لأنَّه معروفٌ مفهومٌ من السِّياق، وتقديرُ الكلام قبل الحذف: "مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ عن الحقِّ، المستخفِّين به"⁽²⁾، "المتكبرين عن الإيمان"⁽³⁾، فضلاً عمَّا يوحي به حذفه من عموم الدَّم جميع مَنْ فيه تكبرٌ، سواء كان تكبُّراً على الدِّين، أو تكبُّراً على أحدٍ من النَّاس، أو تكبُّراً عن كلِّ حقٍّ تبَيَّنَ له، أو غير ذلك من صنوف التَّكَبُّر.

❁ الفروق المعجمية:

المثوى والمأوى:

النَّوَاء: الإقامة مع الاستقرار، قال الله ﷻ: **﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾** [القصص: 45]، وقال: **﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾** [الرُّم: 60]، وقال: **﴿أَلَنَارُ مَثْوٍ لَّكُمْ﴾** [الأنعام: 128]⁽⁴⁾. فالمَثْوَى مكان الإقامة والمستقر.

(1) يراجع في هذا بحث: (من وجوه اللامعة بين اللقال والمقام في وصفَي العذاب «المُهين والأليم» في الذِّكر الحكيم) للدكتور أحمد محمد محمود سعيد، وهو بحث منشور في مجلة قطاع كليات اللغة العربية والأقسام المناظرة لها - جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة عام 2008م.

(2) الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التَّنْزيل: 179 / 4.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 214 / 3.

(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ثوى).

الكِبَرُ مَتَغَلِّغِلٌ
في نفوسِ الكفَّارِ
مَتَمَكَّنٌ منهم

التَّكَبُّرُ بِالْإِطْلَاقِ
مَذْمُومٌ عَلَى
الإِطْلَاقِ

المَثْوَى مَكَانُ
الإِقَامَةِ
وَالْمُسْتَقَرُّ،
وَالْمَأْوَى مَكَانُ
الإِيْوَاءِ بِلا قَيْدِ
الإِقَامَةِ

والمأوى مصدرٌ: أوى يأوي أويًا ومأوى، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال تعالى: ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: 15]، وقوله تعالى: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: 197] اسمٌ للمكان الذي يأوي إليه⁽¹⁾.
ومما تقدّم يتبيّن: أنّ المثنوى يُذكرُ على سبيل الاستقرارِ والإقامة الدائمة، أمّا المأوى فقد يُراد به الدَّيمومةُ وقد يُراد به المكثُ فترةً ثمّ الانتقالُ إلى غيره، وهذا سببٌ إثَّارَ لفظةِ المثنوى هنا.

الفرح والمرح:

الفرحُ قد يكون بحقٍّ فيُحمدُ عليه، وقد يكون بالباطل فيُذمُّ عليه، والمرحُ لا يكون إلّا بالباطل، ويبيّنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ حيث قيّدَ الأوّلَ بغير الحقِّ، وأطلقَ الثانيَ فلم يقيده⁽²⁾، والفرحُ انفعالٌ داخليٌّ، والمرحُ طَرَبٌ ظاهريٌّ، والمرحُ: "الفرح الشديد، الذي يصحبه عبثٌ ولهو"⁽³⁾، وفي "الفرح: السّرور، وفي المرح: البطرُ، فسُرّوا بالإمهالِ وبِطَرُوا بالنعم"⁽⁴⁾، وفي "الفرح: الشُّرك، وفي المرح: العُدوان"⁽⁵⁾، "والفرح: المسرّةُ ورضا الإنسان على أحواله، فهو انفعالٌ نفسانيّ. والمرح: ما يظهر على الفرح من الحركات في مشيه ونظره ومعاملته مع الناس وكلامه وتكبُّره، فهو هيئَةُ ظاهريّةٌ"⁽⁶⁾.

الفرحُ انفعالٌ
قلبيٌّ وروحيٌّ
مستور، والمرحُ
مَظْهَرٌ بدنيٌّ
منظور

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أوى).

(2) العسكري، معجم الفروق اللغويّة، ص: 492.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1270.

(4) للاوردي، النكت والعيون: 5/ 165.

(5) الكرمانى، لباب التفاسير، ص: 2630.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 206.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزمر من الآية 73 إلى سورة غافر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447 هـ - 2026 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزمر من الآية 73 إلى سورة غافر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغنامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزمر من الآية 73 إلى سورة غافر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-642-97-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»